أسطورة قابيل

من سِفر التكوين إلى لافتات "أحمد مطر"

قراءة في نماذج شعرية معاصرة

بقلم: الدكتورة مديحة عتيق

جامعة سوق أهراس/الجزائر

الملخص:

قابيل أو قايين اسم قديم قدم البشرية، عنوان الجريمة الأولى، وبطل موضوع الإخوة الأعداء، ورد في الأسفار الأولى من إصحاح التكوين مرتبطا بالدم والجريمة والخطيئة، ثمّ تفنّن علماء الاقتصاد الاجتماع والنفس في إضفاء دلالات جديدة عليه، فجُعِل تارة رمز الصراع بين الزراعة والرعي، وبين الإخوة الإعداء تارة أخرى..

تحاول هذه الورقة أن ترصد تطوّرات دلالات هذه الأسطورة من النصوص الدينية وخاصة التوراة والقرآن إلى النصوص الإبداعية وخاصة الشعر العربي المعاصر مستجلية ثوابت الأسطورة ومتغيراتها.

الكلمات المفتاحية: *قابيل- هابيل-الإخوة الأعداء- الأسطورة- الأسطورة الأدبية- الشعر العربي المعاصر.*

Abstract

Cain is the first child of Eve, the first murderer, and the first human being to fall under a curse. In Genesis, he refers to blood, sin and murder. Later, psychoanalysts made Cain(and Abel) as an archetype of fratricide, the economists and sociologists made it a symbol of the conflict between the farmer and the shepherd.

This paper tends to trace the emergence of this myth in the religious texts especially Bible and Quran and in Arab contemporary poetry and its multiple significance.

قابيل وهابيل.. ورهان الأخت الجميلة:

قابيل أو قايين اسم قديم قدم البشرية، يرحل بنا عبر دهاليز الذاكرة إلى ثاني مأساة شهدها الإنسان عقب طرد آدم وزوجه من الجنّة، إنّها حادثة قتل قابيل أخاه هابيل مع سبق الإصرار والترصّد لأنّيه نازعه في "الأنثى" التي تملّكها، وارتضاها لنفسه، تقول الأسطورة: "إنّ حوّاء كانت تنجب في كلّ توأم ولدا وبنتا، فكان كلّ ولد لا يتزوّج أخته التي ولدت معه، وإنّما يتزوّج فتاة التوأم الآخر، وقد تمرّد قابيل على هذه السنّة لأنّ الفتاة التي ولدت معه كانت أجمل من التي ولدت مع أخيه هابيل، ومن ثمّة أراد أن يحتجزها لنفسه، ولما احتكما لأبيهما طلبا منهما أن يقدّما قربانا لله، والذي يُقبَل قربانه يتزوّج من الجميلة، فتقبّل الله قربان هابيل، واغتاظ قابيل، وقتل أخاه الذي حرمه من الجميلة"[1].

تشير الأسطورة بشكل غير مباشر إلى أنّ المرأة هي أصل البلاء والشرّ، فكانت حوّاء هي السبب في ارتكاب الإنسان الخطيئة الأولى، وطرده من الفردوس، وكانت "الأخت الجميلة" هي الدافع لارتكاب أوّل جريمة بشرية على وجه الأرض.

قابيل في التوراة:

تبنّيت التوراة أسطورة قابيل في تفاصيلها العامّية وخطوطها العريضة، وإن غيّرت دوافع الجريمة، وصاغت القصة في عبارات بسيطة ومؤثّرة، وها هي القصّة :

"وَعَرَفَ آدَمُ حَوَّاءَ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتِ: «اقْتَنَيْتُ رَجُلاً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ». ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ. وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِيًا لِلْغَنَمِ، وَكَانَ قَايِينُ عَامِلاً فِي الأَرْضِ. وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ، وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِهَا. فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ

وَقُرْبَانِهِ، وَلكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ. فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ. فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «لِمَاذَا اغْتَظْتَ؟ وَلِمَاذَا سَقَطَ وَجْهُكَ؟ إِنْ أَحْسَنْتَ أَفَلاَ رَفْعٌ؟ وَإِنْ لَمْ تُحْسِنْ فَعِنْدَ الْبَابِ خَطِيَّةٌ رَابِضَةٌ، وَإِلَيْكَ اشْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيْهَا». وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ. وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ. فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟» فَقَالَ: «لاَ أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِي؟» فَقَالَ: «مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ"[2].

أثارت هذه القصة فضول القراء والمفسرين ورجال الدين، فرغم ما حفلت به من تفاصيل مثل أسماء الأخوين، أصلهما، وظيفتهما، طبيعة القرابين التي قدّماها، تداعيات تقديم القرابين، وتقبّل أحدهما دون الآخر، جريمة القتل، وعواقبه، ولكنّ القضية ظلت تثير التساؤلات وتدفع المتخصصين إلى وضع تكهّنات وافتراضات كثيرة، وكان أهمّ سؤال حيّر المشتغلين على النص الديني هو كالآتي: لماذا تُقُبّل قربان هابيل (الكبش) دون قربان قابيل "الثمار" رغم أنّه الابن البكر لآدم؟؟ ومن الإجابات المفترضة نذكر ما يلي:

الدم المسفوك ... يهوه يحب رائحة الشواء:!!

إنّ الديانة اليهودية وإله اليهود "يهوه" يميلان إلى "الدمّ "كأداة للتطهّر والتحرّر من الخطيئة، وكان قربان هابيل (الكبش) يتضمّن هذا المطلب على عكس قربان قابيل، ويلاحظ مفسّرو العهد (القديم والجديد) تشابها بين هذه القصة وقصة خطيئة آدم وحواء فحين عرف آدم أنّه عريان حاول أن يواري سوأته بأوراق الشجر لكن سرعان ما اكتشف عدم جدواها، فاستعاظ عنها بجلد الحيوان مما يعني ضرورة سفك الدّم للحصول على جلد يواري العورة التي تذكّر آدم بخطيئته الأولى، وكأنّ الدم المسفوك هو محاولة للتخلّص من تداعيات الخطيئة .

قابيل وهابيل .. أو الصراع بين الراعي والمزارع:

وخلافا للتفسير الديني فسّر بعض الدّارسين العلمانيين أسطورة قابيل وهابيل تفسيرا اقتصاديا، إذ رأوا فيها تجسيدا للصراع بين نمطين معيشيين مختلفين هما: الزراعة/قابيل، والرّعي/ هابيل بما يفرضه كلّ نمط من سلوكيات ونظم أخلاقية معيّنة، اتّضحت جليّا في اختلاف عقلية الأخوين العدوّين اختلافا يصل إلى حدّ التناقض، فتمثّل قابيل عقلية الفلاح بحنكته، وذكائه، ودرايته، وتمثّل هابيل عقلية الراعي بتواضعه وتفكيره الآني واعتماده على السماء في تدبّر أمور معيشته وسذاجته وبساطته ولا أدلّ على ذلك من اسمه المشتق من الهبل أي قلّة العقل وبطء الفهم .

ويبدو هذا التأويل منطقيا وملائما لملابسات التاريخ اليهودي وظروف كتابة التوراة، فقد "كان اليهود شعباً رعوياً؛ وسمات إله اليهود رعوية بالمطلق. كذلك فالتقويم اليهودي القمري أبرز رموز الرعوية، قبل أن يتمّ تحويره بحيث يناسب التقويمين، الرعوي والزراعي. لذلك كان تعاطف يهوه مع هابيل هو الأوضح، مقابل رفضه غير المبرر لقايين؛ وذلك من خلال رمزية القربان(...)الصراع بين الثقافتين أوضح من أن يُنكَر؛ بل يبيّن التكوين أنه ضمن هذا الصراع الأزلي لا يمكن للثقافتين أن تتعايشا معاً. ورغم أن يهوه كان جليّ التعاطف مع الرعوي هابيل، إلا أن "التكوين " الذي لا يستطيع إنكار الواقع، يجعل الزراعية تقضي على الرعوية عبر رمزية قتل قايين لهابيل[3].

وبعبارة أخرى "إنّ قصة هابيل راعي الغني، و قايين (قابيل إسلاميا) زارع الأرض، هي استلهام لحضارتين عرفهم العالم القديم، ومازالت حتى اليوم. فقد عاشت القبائل الإسرائيلية البدوية بين حضارتين زراعيتين عظيمتين (وادي النيل ووادي الفرات) فكان طبيعيا أن يصب الراعي جام غضبه علي المزارع الذي تفوق

بفـائض الإنتـاج، ولهـذا قتـل المـزارع الراعـي في القصـة التوراتيـة ترميـزا لتفـوق الزراعـي ولكن الراعي وإن كان مقتولا فإنه المفضل عند الله..[4].

"أسـطورة أنكـمـدو (Enkimdu) و دومـوزي.. (Dumuzi) الوجه الآخر للصراع بين الفلاح والراعي:

يقودنا الحديث عن التاريخ اليهودي وكتابة التوراة إلى مسألة تأثر اليهود في كتابتهم العهد القديم بالأساطير السومرية التي تعرّفوا عليها أثناء السبي البابلي، لذا جاءت قصتهم التكوينية عن قابيل وهابيل متأثرة بأسطورة **أنكمدو و دوموزي:**

في هذه الاسطورة نجد أنانا (آلهة الحب والخصب عند السومريين) تبحث عن زوج فيتقدم لطلب يدها دوموزي الراعي و أنكمدو المزارع. وهي كموقف اولي تفضل أنكمدو.

انا العذراء سأتزوج المزارع

الفلاح الذي يزرع النباتات ويعطي الغلال الوفيرة

الفلاح الذي يُنتِج الحبوب الغزيرة "[5].

الّا أنّ اخاها (أوتو) اله الشمس يحضّها على الزواج من دوموزي الراعي وتفضيله على الفلاح، فتقبل بذلك ممّا يدلّ مبدئيا على انتصار الراعي على الفلاح لكن سرعان ما يخبو وهج هذا الانتصار إذ ترسل إنانا بدموزي المسكين الى العالم الاسفل، ليمثّلها هناك، وهكذا تغدو التضحية بالراعي شرط انتصار الزراعة واستكمال دورة الخصب على الارض.

وعليه "فإنّ انتصار الراعي لمْ يكن الّا مؤقتا وزائفا ومرحلة تحضيرية لخسارته النهائية، بل وللتضحية به لضمان استمرار الحضارة الزراعية. وفي مراميها الاخيرة فإن

هذه الاسطورة تتفق مع بقية اساطير وادي الرافدين في سيادة الفلاح وغلبته على الراعي[6].

ورغم هذه التشابهات تظلّ هذه الأسطورة تطرح إشكالات مثيرة للجدل منها: إذا كانت الأسطورة انتصارا للرعي بنظمه وأخلاقياته، فلماذا قتل هابيل في منتصف النص تقريبا؟ وإذا كانت القصة ترفع من شأن الفلاحة بمنظومتها القيمية أفكان من الضروري أن يلغى مجتمع الرّعي إلغاء دمويا؟ وهل تفوّق نمط معيشي يستدعي بالضرورة إعدام نمط آخر لمجرّد أنّه يغايره؟، ولعلّ الإجابة تكمن في مقولة رينهارد لاوت وهي كالآتي" لقد دشّن الفلاح عصر اغتراب البشر بين يعضهم البعض، حينما لم يعد حضن العائلة الكبرى يتّسع للجميع، وحين بدأت العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان تأخذ شكلا يتأرجح بين المشاركة الحميمية والنزاع القاتل"[7].

ولعلّ موت هابيل في منتصف النّص يدلّ رمزيا على تعاطف اليهود مع ماضيهم الرّعوي وحنينهم إليه وإلى القيم الرعوية الماضية، وإن كانوا يدركون أنّ هذا المطلب يقع عكس تيار التاريخ والمنطق والسيرورة الحضارية، لذا لا يتجاوز الأمر دائرة الحلم والتمنّي والبكاء على ماض تليد وبريء ولذلك لا غرابة "أن يستحيل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى رعاة جدّدوا في حيواتهم صورة الرّاعي المقتول (هابيل) وعلى خلافهم جدّد أهل مصر وكنعان وبابل بعمرانهم وحرثهم وزرعهم عهد قابيل القاتل لا سيّما إذا وضعنا نصب أعيننا أنّ الاستقرار في كنعان مثّيل في المتخيّل اليهودي بداية الانحدار الأخلاقي والديني لبني إسرائيل، فبالتوازي مع تأسيس المملكة اليهودية (ممارسة التجارة والزراعة) أخذت الأصوات تتعالى منادية بالعودة إلى الأصول (الرّعي) استعادة للطهر والقداسة ونقاء سلالة الأجداد والآباء (إبراهيم، إسحاق، يعقوب...) باعتبارها امتدادا للمخلوق البشري المقدّس آدم الذي نفخ فيه الإله الرّب من روحه وسوّاه بيديه "..[8].

قابيل في القرآن الكـريـم:

حظيـت هـذه الأسـطورة باهتمـام معتـبر في الـنص القـرآني، إذ أشـار إلى تفاصيل القصة دون ذكر الأسماء، وذلك في قوله تعالى: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ"(9).

نستسلم الآن لإغواء المقارنة بين قابيل في التوراة والقرآن الكريم، تتفّق القصتان في ثلاثة أمور وهي:

*تقديم القربان

*تقبّله من أخ دون آخر

*قتل أحد الأخوين للآخر

وتختلف القصتان بعد ذلك في أمور كثيرة، منها:

*لم يذكر القرآن اسمي الأخوين، واكتفى بعبارة "ابني آدم"

*لم يذكر أيضا ماهية القربانين.

*بدا هابيل (الأخ الضحية) أقلّ انطوائية وسلبية ممّا بدا عليه في التوراة، فهو يحاجج أخاه في سبب تقبّل قربانه، وينبّهه إلى عواقب الأمور، ويحذّره من مغبّة ما ينوي فعله.

*أضاف القرآن قصة الغراب وهي غائبة تماما في القصة التوراتية.

*غلب على القصة التوراتية السرد والتأريخ وغلب على القصة القرآنية الوعظ والإرشاد، إذ نلاحظ أنّ النّص القرآني أسقط ذكر دافع الجريمة سواء كان أنثويا (الأخت الجميلة) أم اقتصاديا (صراع الراعي والفلاح)، وجعل التقوى معيارا لقبول القربان،كما أنّه أضاف إلى المتن التوراتي حكاية الغراب ليعمّق مأساة اللحظة الدرامية حين يتعرّف الإنسان على الموت لأوّل مرّة. وبعبارة أخرى "إنّ النّص الإسلامي طبع الأحداث المروية ببعد أخلاقي إنساني مطلق يفيض عن المكان والزمان والأشخاص، برز في علامات نصّية عديدة منها عدم ذكر الاسمين، فالقرآن الكريم اقتصر على نعتهما بـ"ابني آدم" علاوة على كون النّص القرآني لم يذكر مطلقا صفة كلّ طرف منهما، ومن ثمّ نقل الصراع من إطار التنافس القائم بين المزارع والراعي أثناء تقديم القربان وبعده إلى إطار أبعد غورا جوهره الصراع بين الإنسان والإنسان، ناهيك أنّ قصّة ابني آدم وردت في سياق وعظي لاستخلاص العبرة"[10].

قابيل في التراث العربي.. إشارات عابرة:

كان أقدم نصّ يعالج أسطورة قابيل وقع بين أيدينا هو قصيدة للشاعر العباسي علي بن جهم يؤرّخ فيها للخليقة حيث يقول:

"يا سائلي عن ابتداء الخلق مسألة القصد قصد الحقّ
أخبرني قوم من الثقات أولو علم وأولو هيئات(...)
إنّ الله يفعل ما يشاء ومن له القدرة والبقاء
أنشأ خلق آدم إنشاء وقدّ من زوجه حوّاء(...)[11]

ويستمرّ في صياغة قصة الخطيئة إلى أن يقول:

"ثمّ تسلّى وأحبّ النسلا فحملت حوّاء منه حملا

فولدت ابنه وسمّي قاينا وعاين من أمره ما عاينا

فشبّ هابيل وشبّ قاين ول يكن بينهما تباين "[12]

تتوقف القصيدة عند هذه النقطة، وقد علّق الأستاذ خليل مردم بك محقّق الدّيوان بأنّ هذه الأبيات جزء من فاتحة قصيدة مطوّلة من تاريخ الخلفاء العباسيين لعلي بن جهم ضاعت مع ما ضاع من شعره، يدلّنا هذا التعليق على أنّ قابيل قد ورد عرضا في القصيدة ضمن سلسلة المجرى التاريخي للنّص الذي يؤرّخ للخلفاء العباسيين دون أن يكون في نيّة الشاعر أن يحمّله أيّ دلالات خاصّة، ونلاحظ أنّ الشاعر قد أورد الأسطورة بالتسمية التوراتية بدل الإسلامية ممّا يدلّ على اتّكاء الشعراء العرب القدامى على الإسرائيليات في استلهامهم المتواضع للأساطير، وقد بدا هذا النّص أقرب إلى النظم التاريخي منه إلى استلهام الأسطورة وتمثّلها رؤية وأداة أي أنّ التوظيف هنا لم يتجاوز هذا الحضور اللفظي.

كما أشار المعرّي إلى قابيل بشكل عابر في لزوميّاته حين يقول:

"دع آدم لا شفاء له من هبل يبكي على نجله هابيلا

ففي عقاب الذي أبداه من خطا ظللنا نمارس من سقم عقابيلا "[13]

يتبنّى المعرّي فكرة الخطيئة المتوارثة، ويرى أنّ البشر سليلو القتلة وزناة المحارم، فكلّنا من آدم، وآدم هو أبو أخوين، قتل أحدهما الآخر كي يتزوّج أخته، فإذا كان هذا أصل البشر، فلا عجب أنّهم –في نظر المعرّي– شرّ خلف لشرّ سلف.

قابيل في الشعر العربي المعاصر:

لجأ الأديب العربي في العصر الحديث إلى استلهام الأساطير لتحقيق أغراض فنّية وفكريّة متعدّدة، كان أوّلها أن يتّخذ الأسطورة قناعا وقائيا يحميه من عين الرّقابة، ويدع مسافة مجازية بينه وبين السلطة، إذ اختبأ الأديب وراء كنانة الأسطورة ورشق من خلالها أعداءه وخصومه بسهام الرّفض والاحتجاج، وكان ثانيها تحرير النّص الأدبي من أسوار البلاغة القديمة التي تقوم على السجع والزخرف اللفظي والمبالغة واختبار الذاكرة في حفظ الغريب، أضف إلى ذلك رغبة الروائي العربي في كسر النمط الخطّي للسرد الحديث الذي ينتسب شرعيا أو بالتبنّي للسرد التتابعي في السير الشعبية والحكايات التراثية.

نالت أسطورة قابيل بعض الاهتمام لدى شعرائنا وروائيينا العرب، وكان في الصدارة الشاعر العراقي بدر شاكر السياب الذي وظّف أسطورة قابيل في عدّة نصوص منها قصيدة **"رؤيا فوكاي"** حيث يقول:

"قابيل باق وإن صارت حجارته
سيفا وإن عاد سيفه الخذم
وردّ هابيل ما قضاه بارئه
عن خلقه ثمّ ردّت باسمه الأمم
واليوم حين وفّى الدّين غارمه
إلا بقايا وكادت تخلص الأمم
مشى على خلق عاش في دمه
من وحشها في المخاض الأوّل الضرم "[14]

يرتفع السياب بقضية الإخوة الأعداء من إطارها العائلي إلى إطار إنساني شمولي ليدين تقاتل الإنسان مع أخيه الإنسان، فيعيد بذلك تجربة قابيل، وإن كان يفعل ذلك الآن بآلات أكثر فتكا ودمارا بما يتلاءم وإفرازات الحضارة التكنولوجية خاصّة وأنّ السياب يكتب نصّه تحت وطأة مأساة هيروشيما حيث استباح قابيل القرن العشرين دماء مئات الآلاف من إخوته في رمشة عين، كما أنّ السياب يتناصّ في هذا النّص مع قصيدة "شبح قايين" للشاعرة الإنجليزية إديثستويل، فالسياب يفسّر رؤيتها في التطوّر "الحضاري" من خلال تطوّر سلاح العدوان: الحجر – السيف– القنبلة الذّريّة، كما يشرح رؤيتها في حادثة هيروشيما التي عدّتها تكرارا لمأساة قابيل وهابيل، وترمي قصيدة السيّاب إلى التأكيد على تأصّل بذرة العداوة في البشر رغم مرور ملايين السنين على الحادثة الأولى ممّا يعني أنّ التكنولوجيا لم تقتل العنصر البدائي في الإنسان المعاصر بل زادته وحشية وقوّة واستعدادا لقتل أخيه الإنسان.

وفي قصيدة "**المخبر**" يقلّص السيّاب من البعد الإنساني لقضية الإخوة الأعداء، ويصبغها بصبغة محلّية/ عراقية، وتلوينات سوسيو سياسية، فيقول على لسان المخبر:

"فليحقدنّ عليّ كالحمم المسعّرة الأنام
كي لا يكونوا إخوة لي آنذاك ولا أكون
وريث قابيل اللعين سيسألون عن القتيل
فلا أجيب
"أأنا الموكّل – ويلكم– بأخي فإنّ المخبرين
بالآخرين موكّلون[15]"

يطرح النّص موضوع "المخبر" وهو شخصية شاذّة أفرزتها الاضطرابات السياسية في الأوطان العربية، وهو يضطلع بدور مراقبة المواطنين واستقصاء أخبارهم، ورصد سكناتهم وحركاتهم، ومن ثمّة الإيقاع بهم، وبعبارة أخرى، إنّه شخصية تعيش من مصائب الغير، وتستمدّ وجودها من الإيقاع بالآخر، ولكي يخرس صوت ضميره الذي يؤنّبه على ما يفعله بأخيه المواطن تبرّأ من تلك الأخوّة حتّى لا يكون سليل قابيل، وأعلن صراحة عن دوره ليضع جدارا بينه وبين الآخرين، فلا يستطيع أن يحبّهم لأنّه لو فعل ذلك لمات، وحين يسأل: أين أخوك هابيل/ المواطن العربي؟ فإنّه لا يستطيع أن يجيب: ألعلّي حارس على أخي؟ كما اجاب قابيل الأسطورة لأنّه فعلا موكّل بحراستهم ولكن لتدميرهم لا لحمايتهم، إنّه شخص يستمدّ كيانه ووجوده من قتل أخيه الإنسان مادّيا ومعنويّا.

في قصيدة **"المعبد الغريق"** يستبدل السياب "أطلس" بقابيل حين يقول:

"نجوما في سماء شدّها قابيل
فليتك حين هزّ الموصل الإعصار
(لا دربا ولا قبرا نجا فيها)
شهدت الأعين الغضبى
وليتك في قار مرّ حين تنفّس السّحر
فقصّ على سرير السكّة الممدود أمراسا
تعلّق في النهايتين جسم يحصد النّظر
عليه الجرح بعد الجرح بعد الجرح أكداسا
ليهوي جسم "حفصة" لابسا فوق النجيع دما وأتراسا "[16]

غيّر السيّاب بعض تفصيلات الأسطورة اليونانية التي تزعم أنّ زوس حكم على المارد أطلس بأن يحمل السماء على كاهله إلى الأبد، واستبدله الشاعر بقابيل للدلالة على أنّ الحضارة المعاصرة تقوم على الدّم والعنف وإلغاء الآخر.

وجّد السيّاب في قصيدة "**سفر أيوب**" بين ذاته وأيّوب الذّي هدّه المرض والضعف، فيطلب العون من أخيه الإنسان/ قابيل، فيصيح مستغيثا:

"فهل استوقفت الخطوات؟ أصرخ أيّها الإنسان

أعنّي... يا أنت... يا قابيل خذ بيدي على الغمّة

أعنّي... خفّف الآلام عليّ واطرد الأحزان "(17)

يغدو قابيل في هذا النّص "القشّية" التي يتعلّق بها الشاعر الغريق في آلامه وأحزانه محاولا أن يستبصر نورا من الأمل في هذا الأخ المزعوم وهو في لندن لا يجد رفيقا من البشر يساعده ويخفّيف من ثقل أمراضه وعجزه وإحساسه الحادّ بالوحدة والافتقاد.

في قصيدة "**قافلة الضياع**" يسقط السياب أسطورة قابيل على قضبة فلسطين ونظرة الضمير الإنساني إليها، إذ يقول:

"قابيل، أين أخوك؟ يرقد في خيام اللاجئين

السلّ يوهن ساعديه، وجئته أنا بالدّواء

والجوع لعنة آدم الأولى وإرث الهالكين

ساواه والحيوان ثمّ رماه اسفل السافلين

ورفعته أنا بالرّغيف من الحضيض إلى العلاء "(18)

يتحدّث الشاعر على لسان قابيل الذي برأ نفسه من جريمة قتل أخيه مدّعيا أنّه استخلصه من براثن الجوع والمرض، وقابيل –هنا– هو رمز الضمير العالمي الذي رفع عن ذاته تهمة قتل اللاجئين الفلسطينيين بإقامة وكالة الغوث الدولي، فكأنّ أمر هؤلاء هو مسألة غذاء ودواء فحسب، وليس مسألة كرامة وأرض وحقّ، إنّ قابيل –هنا– لم يقتل هابيل قتلا دمويا فحسب، بل قتله معنويا حين حوّله من صاحب أرض إلى متسوّل يستجدي العالم غذاء ودواء، لقد مثّل السيّاب وقع الفاجعة في ضمير العالم مؤلّفا بين واقع اللاجئ الفلسطيني وواقع الأسطورة التي بدت منحدرة من قلب السياق ورحم التجربة التي عاناها الشاعر بوصفه عربيا وشاعرا.

وبعيدا عن هذه الصورة المندّدة بقابيل الأسطوري، يطالعنا نص **"ثلاث قصائد من فلسطين"** للشاعر عبد الكريم السبعاوي يطرح فيه رؤية أخرى حيث يقول على لسان قابيل:

"هابيل على كتفي ما أثقله
هم قتلوه، ولكن أنا أحمله "[19]

نلمس تعاطفا من الشاعر عبد الكريم السبعاوي إزاء قابيل الذي يمثّل الإنسان الفلسطيني الذي يحمل على عاتقه ثقل مأساته وقضيّته التي لم يكن له يد فيها، فهو يحمل شرف العرب وكرامتهم في حين أنّهم ينفضون أيديهم من كلّ مسؤولية إزاءه وكأنّ القضية قضيّته وحده، نلمس في هذا التوظيف المتميّز لشخصية قابيل نوعا من التأثّر بالتوظيف الرومانسي لأسطورة قابيل حيث يبدو متحيّزا له ومتعاطفا مع مأساته التي لم يكن له يد فيها على نحو يذكّرنا بقابيل الشاعر الإنجليزي اللورد بايرون في قصيدته الشهيرة "قايين" التي تعبّر عن مأساة الخليقة بما ينتابها من قلق وشكّ وتمرّد غير محدود.

في قصيدة "**قابيل النفطي**" يطرح الشاعر عبد الوهاب زاهدة صورة جديدة ومريرة، فهو العربي الذي قاتل أخاه بالأمس من أجل بئر ماء ويقاتله اليوم من أجل بئر بترول:

"قابيل شيخ قبيلة وأمير رهط
قد عاش طوال حياته ما فكّ خطّ
يجترّ داحس والبسوس وحكاية النعمان مع ملك المجوس
وأمجاد خمر ولغط
وبلاده جدب وقحط
ولأجل شاة
اعتاد أن يغزو أخاه
حتّى أتاه الحظ في كاز ونفط
فاستلّ سكين الذهب
واندار يذبح في العرب"(20)

يبدو قابيل كهلا معمما بعقلية شيخ قبيلة عربي يستحلّ دم أخيه من أجل بئر أو شاة ثمّ يتدفّق فجأة البترول تحت أقدامه، فيبيع تروسه وسيوفه وفؤوسه، ويجنّد ماله وفلوسه، ويمضي يقاتل بالدولار أحبابه وأترابه، ونخيله وترابه، إنّيه شخصية مرضية معقّدة نتيجة انتقالها الفجائي من البداوة إلى التمدّن:

"قابيل أضحى يائسا ومعقّدا
ويعيش في سردابه متعدّدا
فهو الضحيّة وهو أنياب الرّدى

هو جثّة لكنّه يحيا سدى
فقد ازدوج
قابيل هذا العصر ليس له فرج
أعماقه عقد تزاحمه عقد
في جيده قيد وحبل من مسد "[21]

وإذا كان قابيل الأسطوري اغتال أخاه، فإنّ "الشيخ" قابيل النفطي لم يعتل أخاه فحسب بل اغتال ذاته وظلّ يلقي في الخليج رفاته، فمن ذا يذيع وفاته؟؟

يوظّف الشاعر صلاح التكمه جي الأسطورة في قصيدته **"قابيل يفتك بعزّ العراق"** بشكل تعدّدي، فهو عدوّ الإنسانية تارة، وعدوّ العراق تارة أخرى:

"قابيل لم يمت
شرّ يتطاير في كلّ زمان ومكان
قابيل لم ينته
كره لا يعرف حدود الإنسان
قابيل يعود بحقده
قابيل الإرهاب "يتربّص (...)
أيقتل قابيل فكر عزّ الدّين
كلا وألف كلا مادام القلم لم ولن يموت
أيقتل قابيل روح الحبّ لعزّ الدّين
كلا وألف كلا مادام القلب لم ولن يموت
أيسرق قابيل روح الوحدة لأبي ياسين؟
كلا وألف كلا مادام العراق لم ولن يموت "[22]

يبدو قابيل في هذه القصيدة أكثر فتكا وبشاعة من قابيل الأسطوري، وفي الوقت نفسه تبدو علاقته الرّاهنة بهابيل أكثر توتّرا ودرامية لأنّ الشاعر خلع عن هابيل لباس الخنوع والعجز والهبل، وألبسه ثياب التحدّي والإرادة ليكون في مستوى قـوّة غريمـه / قابيـل الـذي نعتـه بصـفة عصـرية هـي وليـدة القـرن العشـرين، ونعـني "الإرهـاب"، فالشـاعر لا يريـد أن تنتهـي قضـية الصـراع بـين قابيـل وهابيـل الـراهنين بشكل مأساوي كالذي حدث في الأسطورة بل يراهن على أنّ هابيل العصر/العراق هو الذي سينتصر في آخر المطاف.

تعطي هـذه الـروح التفاؤلية دفعا جديدا لأسطورة قابيل حيث نحـا بها عـن الخطّ المأساوي الذي رسمته الأسطورة وحذا حذوها معظم الشعراء العرب المعاصرون، وإن كانت قدرات الشاعر الفنّية ليست في مستوى هذه الإضافة المتميّزة، إذ يؤخذ على القصيدة هذه النبرة الخطابية والخطاب الإنشائي كقوله (كلا وألف كلا مادام القلب لم ولن يموت...) و (كلا وألف كلا مادام العراق لم ولن يموت..) فقد لازمت هـذه الخطابيـة والنـبرة الحماسـية والصـوت الرجـراج القصـيدة العربيـة طـويلا وجعلتهـا قصيدة غنائية على مرّ العصور، وحين بدأ الشاعر العربي المعاصر يوظّف الأسطورة كان يضع بين عينيه استغلال طاقات الأسطورة الفنّية لتخليص القصيدة العربية من غنائيتها التي لازمتها طويلا وقد نجح في ذلك أكثر من مرّة ولكنّ الشاعر صلاح التكمه جي أحسن استثمار هذه الأسطورة مضمونيا وليس جماليا.

يكتب شاذل طاقة قصيدة من خمسة مقاطع عنوانها **"قابيل في الدملماجة"** (الدملماجة بئر مهجورة في إحدى ضواحي الموصل يتبرّك بها أهل المنطقة)، ويقول على لسان هابيل:

"وأخي يفتّش بين الأطمار

عن سرّ الثوّار
عن سكين يغمدها في قلب الصورة
عن حبل ينفع في شقّ القمر(...)
هابيل مات
هابيل مات
وأولموا في التلّ للشيطان
ولم يبق منه من دم الإنسان
إلا فتات
فتات "[23]

لا تخرج أسطورة قابيل في هذا النّص عن الصورة العامة التي رسمتها الأسطورة والتي تبنّاها الكثير من الشعراء العرب المعاصرين، فقابيل هو رمز لكلّ سفاح، ولكلّ قاتل بقتل أخاه بدم بارد، ويقابله هابيل نموذج الأخ المستضعف الضحية، وتبدو صورة قابيل في هذه القصيدة نمطية: قاس، ظالم، عدواني، دموي...الخ فهي صورة هلامية، ومطلقة تفتقد إلى أيّة ملامح خصوصية منبثقة من تجربة الشاعر شاذل طاقة الشخصية.

يظلّ الهمّ الفلسطيني يثقل كاهل الشاعر العربي وهو يستلهم أسطورة قابيل، فها هو الشاعر الدكتور جابر قميحة يقول في قصيدته "**على هؤلاء بشعري بكيت:**"

"أعياني البحث
وكأنّي قابيل يحمل جثمان أخيه
لكن، أنّى لي بغراب يبحث في الأرض

يريني
أين أواري يا عزّ الدّين رفاتك؟
معذرة
لا أملك إلا أن أزحف في هدأة الليل المصلوب
لأعود إلى دكاني المخمور
وأواري تحت جدران الحان رفاتك
وأهيل تراب الموت عليك
ولا أخمد أنفاسي بين يديك
وأوسد في القبر السافل
جثمان الشرف العربي "[24]

تنضح القصيدة مرارة وأسى على حال قابيل/ الشاعر الذي ضاقت به الأرض، فلم يجد مكانا يدفن فيه أخاه الفلسطيني الذي استلبت منه أرضه، فحرم شبرا توارى فيه سوأته من قبل أخيه العربي الذي بدا أكثر سلبية وعجزا من نظيره الأسطوري.

تتجلى قصيدة "**أخي قابيل**" للشاعر صلاح السوداني همسة رقيقة بنبرات مؤنّبة تنطق بلسان كلّ قارئ يشكو جفاء أخويا أو قطيعة رحمية، فوظّف الأسطورة من منظور إنساني يصلح لكلّ زمان ومكان، فيقول على لسان هابيل معاتبا الأخ الجافي الغادر:

"أنا هابيل
طريح الأرض يلكز بنعليه أخي قابيل
ويمسح ما بكفّيه على شعري دما قانيا

ينقط من سلاح أخي على شفتي وأجفاني (...)
وكأنّ ما ضمّنا يوما ظلاما
وكأنّ ما ضمّنا الاثنين
ولا قرّبنا يوما
كجروين صغيرين
حنان الصّدر "[25]

جاءت القصيدة مفرغة من أيّ دلالات سياسية أو قومية بل تجلّت نصّا إنسانيا يخاطب غريزة الأخوّة في مستواها العائلي والإنساني عموما، وهي تعبق بمعاني العتاب والتودّد أكثر من الاستهجان والتنديد، وذلك بفضل بلغتها السّلسة وأسلوبها الرّقيق.

يختلف الأمر مع الشاعر أحمد مطر في قصيدته **"الفتنة اللقيطة"** التي يقول فيها:

"اثنان لا سواكما
والأرض ملك لكما
لو سار كلّ منكما
بخطوه الطويل
لما التقت خطاكما
إلا خلال جيل
فكيف ضاقت بكما فكنتما القاتل والقتيل
هابيل و يا قابيل
لو لم يجئ ذكركما في محكم التنزيل

لقلت مستحيل
من زرع الفتنة بينكما
ولم تكن في الأرض إسرائيل؟؟ "[26]

أجّل مطر ذكر قابيل وأخيه إلى منتصف القصيدة ليخلق جوّا من التوتر والتشويق حول ماهية المخاطَبين مستفيدا من سحر الأسطورة وفتنة سردها حيث يطغى جوّ الغموض وعنصر التشويق، ويبدو مطر مستغربا وقوع المأساة التي بدت مبتورة الأسباب واهية الدوافع، فالملكية مشاعة، والأرض متاحة لهما وحدهما، فلا مجال للتطاحن والتقاتل، وخاصّة إنّ إسرائيل لم توجد بعد، وهي التي عدّها الشاعر في هذه القصيدة "أفعى الإغواء."

يبدو للوهلة الأولى أنّ أحمد مطر وقع في فخّ نظرية المؤامرة حيث جعل إسرائيل مشجبا يعلّق عليها جرائم وفتن البشر، ولكن بإعادة القراءة نلاحظ أنّ الشاعر لم يستسلم للثنائية الجاهزة التي تجعل قابيل جانيا وهابيل مجني عليه بل خاطبهما بلهجة واحدة ملؤها التأنيب وحمّلهما معا مسؤولية ما حدث، وهذا ما خفّف من نبرة الإدانة النمطية التي توجّه عادة إل القاتل.

الخـاتـمـة:

كانت هذه الورقة جولة في أجواء أسطورة إنسانية تدور حول الإخوة الأعداء، وتروي صراع الإنسان مع أخيه الإنسان، وكانت محطّات هذه الجولة انتقائية، إذ لا يمكن في هذه الرّحلة القصيرة زيارة كل المواقع التي هجرت إليها أسطورة قابيل يعد أن غادرت مهادها الديني منطلقة نحو آفاق الإبداع وعوالم الشعر والأدب، فالنصوص الإبداعية التي استثمرت هذه الأسطورة لا تتسع ورقات البحث لجردها وتعدادها فما بالك تحليلها ودراستها، ولعلّ مردّ كثرة هذه النصوص أمران:

*ملامسة هذه الأسطورة لموضوع إنساني حسّاس يترك أثرا خاصا في نفس كلّ إنسان عاديّ فما بالك بالشعراء والمبدعين.

*طبيعة الظروف العربية الراهنة خاصة على المستوى الإنساني والاجتماعي، إذ كثرت الفتن والأحقاد فاستحال الإخوة إلى أعداء يكيدون لبعضهم البعض ممّا يجعل أسطورة قابيل" رهانا إبداعيا بامتياز يجد فيه الأدباء ضالتهم للتعبير عن العلاقات الإنسانية المشروخة والمهزوزة.

لاحظنا أنّ الكثير من الشعراء العرب المعاصرين حافظوا على موتيفات أسطورة قابيل، فجاء بصورته النمطية" أخ غادر، قاس، ظالم، معتد، بارد، جاف...الخ، ولم يتأثروا بصورة قابيل الرومانتيكية كما تجلّت خاصة عند بايرون الذي تعاطف معه، ورمز به إلى المتمرّد على القهر، بل أدان الشعراء قابيل وتعاطفوا مع هابيل إلا فيما ندر، كما وجدنا أحمد مطر الذي تمرّد على ثنائية قابيل الجاني وهابيل المجني عليه، وحمّلهما معا مأساة أوّل جريمة بشرية، وكذلك تعاطف جابر قميحة مع قابيل وذلك بعد أن أسقط عليه تجربته الخاصّة، إذ رأى فيه ذاته الأخ العاجز عن دفن أخيه.

لم يهتمّ الشعراء العرب المعاصرون برمزية أسطورة قابيل وهابيل للصراع بين "المزارع والراعي" بقدر ما اهتمّوا بدلالات الأسطورة الإنسانية والاجتماعية والسياسية وذلك استجابة لراهنهم المتوتّر والمفعم بالحروب والصراعات الداخلية، وبهذا الوعي الناضج في مقاربة الأساطير لم تكن أسطورة قابيل زخرفا لفظيا يوشّي بها الشاعر قصيدته بل كانت جزءا أصيلا يتضافر مع باقي الاجزاء في نسيج النّص، فقد ساهم العنصر الصراعي في هذه الأسطورة في خلق تعددية الأصوات في القصيدة وفي إثراء جانبها الحواري، ومضاعفة الحسّ الدرامي الموجود فيها.

الهـوامـش:

1) قصة **قابيل وهابيل**:www.history.al_islam.com

2) (**تكوين** 4:1-10)

3) نبيل فياض: **صراع الثقافتين: التكوين مثالاً!**، http://www.nabilfayad.com

4) هشام حتاتة: **الصراع بين الراعي والمزارع : قابيل وهابيل نموذجا**، الحوار المتمدن-العدد: 3176 - 2010 / 11 / 6،

5) كامل علي: **أساطير الأولين- قابيل وهابيل-الصراع بين المزارع والراعي**، الحوار المتمدن-العدد: 3635 - 2012 / 2 / 11،

6) كامل علي: **أساطير الأولين- قابيل وهابيل-الصراع بين المزارع والراعي**(مرجع سابق)

7) انظر: عبد الباقي الهنداوي: **العنف المؤسس في التوراة والقرآن الكريم: صراع قابيل وهابيل أنموذجا**، مجلة "يتفكرون"، العدد05، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، تونس، 2015، ص09

8) عبد الباقي الهنداوي: **العنف المؤسس في التوراة والقرآن الكريم: صراع قابيل وهابيل أنموذجا**،ص10.

9) (**المائدة**: 27-32)

10) عبد الباقي الهنداوي: **العنف المؤسس في التوراة والقرآن الكريم**: صراع قابيل و هابيل أنموذجا، ص11.

11) علي بن جهم: **الديوان**، تحقيق خليل مردمبك، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، دت، ص157.

12) علي بن جهم: **الديوان**، ص.158

13) أبو العلاء المعرّي: **اللزوميات**، دارالجيل، بيروت، دت، ص220.

14) السياب: **الديوان**، (الأعمال الكاملة)، دار العودة، بيروت، ص366 .

15) السياب: **الديوان**، (الأعمال الكاملة)، ص357.

16) السياب: **الديوان**، (الأعمال الكاملة)، ص280.

17) السياب: **الديوان**، (الأعمال الكاملة)، ص150.

18) السياب: **الديوان**، (الأعمال الكاملة)، ص367

19) عبد الكريم السبعاوي: **ثلاث قصائد من فلسطين**، من مجلة "أداب"، يناير، 1996، ص33.

20) عبد الوهاب زاهدة: **قابيل النفطي** www.geocities.com :

21) عبد الوهاب زاهدة: **قابيل النفطي**: www.geocities.com

22) صلاح التكمهجي: **قصيدة "قابيل يفتك بعزّ العراق** www.ahal-irak.com "

23) شاذل طاقة: قصيدة "**قابيل في الدملماجة**"، www.adab.com

24) جابر قميحة : قصيدة "**على هؤلاء بشعري بكيت** www.ashabmisr.com "

25) صلاح السوداني: قصيدة "**أخي قابيل** www.sudanonline.com"

26) أحمد مطر : قصيدة "**الفتنة اللقيطة**" www.ahmedmatar.com